

الأستاذ: حاج علي عبد القادر جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم

المناهج النقدية في التراث العربي والمعرفة الحديثة

إنّ النقد باعتباره عملية تقييم وتقويم لنصّ أدبي أو فني، لم يكن معروفاً عند العرب القدماء، إلى غاية القرن الثالث للهجرة، حيث أخذ دلالاته المستعملة في الأدب من المعنى المتضمّن التمييز بين الجيد والردّيء. ونجد في بعض المؤلفات أنّ قدامة بن جعفر (ت310هـ) أوّل من استخدم ووظّف مصطلح النّقد في الأدب العربي، كما عرفه في كتابه (نقد الشعر) بقوله: "النقد هو تمييز الجيد من الردّيء"1.

هذا عن المصطلح، أمّا عملية النقد بحدّ ذاتها، فقد ظهرت عند العرب منذ القدم، خاصّة في ميدان الشعر، فقد نُقد شعر امرئ القيس والنابغة وغيرهم الكثير ممن جاء ذكره في تراثنا القديم. ولكن هذا النقد لم يكن يركّز على نفس الأسس المستعملة في عصرنا، بل كان الناقد يولي الأهمية الكبرى للناحية الفنية والشعور والوقع في النفس المتلقية بدون تحكيم للفكر أو لجوء إلى التحليل، وبرع في ذلك النابغة الذبياني الذي كانت تضرب له قبة في سوق عكاظ، حيث يعرض عليه الشعراء أعمالهم فيفاضل بينهم. ولكن رغم ذلك فهذا النقد يعتبر عملية إبداعية محضة ناتجة عن العلاقة التي لا تخفى بين العرب والشعر، وهي وليدة المجتمع الذي أوجد تلك الظواهر الفنية والجمالية، كما أن شعر تلك الفترة كان في الأغلب محاكاة للواقع والحياة الاجتماعية، وهذا ما جعله في سيرورة دائمة لوقوفه على أسس حقيقية رغم المحاولات العديدة لتجديده أو تحريفه بقيم وأفكار غريبة عن مجتمعا.

وهذا ما لم يغفل عنه أدباء ومفكّروا العصور الإسلامية الأولى، حيث عكفوا على وضع أسس للحفاظ عليه بنقده وتقويمه كي يحافظ على جودته وقالبه، مع الأخذ بعين الاعتبار التغيرات الثقافية والفنية والإبداعية والظواهر الاجتماعية السائدة في كل فترة زمنية، ومحاولة مسايرتها،

فيكون التأثير بها قبل التأثير فيها. حينها بدأت عملية النقد تأخذ قالباً أكثر نظامية وشولية، بعدما كانت تتلخص في عمود الشعر أو مدى تأثيرها في فؤاد السامع أو القارئ.

وهناك أسماء كثيرة لا يمكن تجاهل إسهاماتها في وضع النواة الأولى للنقد المنهجي، فالجاحظ والمبرد والأصفهاني أسسوا للمنهج التاريخي القائم على التسلسل الزمني والتصحيح والتضعيف، وابن سلام الجمحي الذي أولى أكبر اهتماماته للزّمان والمكان والمفاضلة بين الشعراء على أساسهما، رغم أنّ نقده كان للشعراء أكثر من نقده لشعرهم، والأصمعي الذي بنى منهجه النقدي على أساس مدى توظيف التشبيه وجودته في العمل الأدبي والفصل بين القيم الأخلاقية والإبداع الأدبي، وابن المعتز الذي ركز على البديع في الشعر والجرجاني صاحب نظرية النظم.

إذن هناك علاقة قديمة بين الأدب والنقد، ولكن ماذا عن المنهج؟ من الواضح أنّ المناهج النقدية التي تمثل أفضل وسيلة لسبر أغوار الأعمال الأدبية قد ظهرت كنتيجة لقوة الأدب وتأثيراته الإيجابية، لكن رغم تطور هذه المناهج عبر العصور إلا أنّها لا تستطيع تشريح أي نص دون دربة وذوق لغوي وتدخل حسي من الناقد عند مطالعته لهذا النص تقوده إلى استقراء مقصد الكاتب ومحاكاة ما يخلق في ذاته.

أما بالنسبة للنقد اللغوي فهو يحكم على النص بقدر جودة لغته وسلامتها صرفياً ونحوياً ودلالياً. وقد ظهر هذا الضرب من النقد منذ وضع اللغويين والمفكرين العرب أسساً للنحو والصرف، ولكن النقد اللغوي لم يكن مرحباً به عند القدماء وخاصة الشعراء، لأنه كان يتبع كلّ أخطائهم وزلاتهم سواء المتعمدة أو غيرها، وقد اشتهر بذلك عبد القاهر الجرجاني الذي ركز على عملية النظم وخصّها بنظريته المشهورة، وهو يرى بأنّ العمل الجيد هو الذي يراعي أصول النحو وقواعده كما لم يُغفل علم المعاني.

ثمّ ما لبث النقاد أن أضافوا إلى مناهجهم النقدية زيادة على نظرية النظم الدراسة الصرفية، التي لم تكن ذات أهمية عند أوائل النقاد.

ولكن هذه المنهجية أيضاً لم يكن مرحباً بها من طرف الشعراء، فهم يرون أنه يجوز للشاعر مالا يجوز لغيره، وبذلك لا يمكن اعتبار أخطائه أخطاءً بل جوازات شعرية. ولكن **النقاد بدورهم لم يقتنعوا** بهذه الفكرة، فالخروج عن قواعد اللغة العربية سواء كانت هذه القواعد **صرفية** أو **نحوية** أو **دلالية**، غير مسموح به لما ينجر عنه من لغط وتحريف للغة، وهذا لا يعني بالضرورة عدم وجود **الضرورة الشعرية** بل يحصرها في مجال لا يعس بهوية اللغة العربية وأصولها.

إذن فالنقد اللغوي لابد منه للحفاظ على أصالة اللغة العربية وقواعدها النحوية والصرفية والدلالية مع فتح مجال كبير للإبداع دون المساس بهذه القواعد، بل على العكس من ذلك، على المبدع أن يستفيد من هذه القواعد ويوظفها بأحسن صورها، فهي تصونه من الوقوع في الخطأ، فيكون عمله ثمرةً بديعةً في الأدب السليم الراقي.

إذن فالتراث العربي حافل بالتجارب والمناهج النقدية التي انطلقت من بدايات عفوية ارتكزت على العربية السليقة التي كان يتمتع بها العربي آنذاك، وعرفت هذه المناهج طريقها إلى عصرنا الحديث بعد تقويمها والإضافة إليها وتطويرها.

ففي البداية كان النقد يقتصر على الأحاسيس والوقع في النفوس، وذلك على حسب طبيعة الشاعر العربي آنذاك وروح المجتمع الذي كان مرهف الحس، لذا كان النقد بمثابة ردة فعل طبيعية من المتلقي، وهذا بعيداً كل البعد عن النقد المنهجي، وإن اقترب منه أحياناً قليلة في صورة ملاحظات سطحية. وكان هذا النقد شديد الارتباط بالشعر خاصة، فكان يسايره في أغراضه وأهدافه، وهذا مقبول إذا ما راعينا مكانة الشعر عند العرب الأوائل، حيث يرى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه "علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه" 2.

ولكن النقد لم يبق على هذه الحال، بل عرف تطورات وتغيرات على مدى العصور، ولعل أبرز حركة عرفها كانت في القرنين الثالث والرابع للهجرة، حيث برز عدة أدباء ومفكرين اهتموا بالنقد وأصوله كالبرد وابن المعتز. وقد كانت بداياتهم مرتكزة على الأصل الأول للنقد العربي أي الأثر الحسي. وربما يعود حال النقد قديماً إلى تأخر تدوين اللغة وعلومها من نحو وصرف وغيرهما،

حتى العصر العباسي الذي عرف نهضة في شتى مجالات المعرفة، فبدأ عندها العلماء والمفكرون واللغويون في تقعيد أصول النقد فأضافوا إلى النظرة الحسية، الدراسة التحليلية المنهجية.

ولم تقتصر أعمال مفكري وعلماء تلك الفترة على تدوين التراث ودراسته، بل تعدّته إلى النهل من علوم الحضارات الكبرى المحيطة بهم، خاصة الحضارة اليونانية صاحبة السبق في الكثير من العلوم. وتطوّر النقد كغيره من العلوم، فأخذ الأدباء واللغويون والفلاسفة والمفكرون العرب يرسّخون العلوم التي جاد بها التراث العربي من نحو وصرف وبلاغة وعروض، بينما تفرّغ آخرون لدراسة العلوم الغربية، وحاولوا صيّاها في الثقافة والمعرفة العربية، فأضافوا إلى النقد المنطق والفلسفة وقاموا بتنظيمه ودمج التراث بهذه العلوم التي نقلوها³، فبدأت عملية النقد بالتبلور وأخذت شكلها المنهجي العلمي المنظم، غم أن ذلك لم يكن بصورة دقيقة كاملة ونهائية، كما يُشهد لنقاد العصرين الأموي والعباسي بمحافظتهم على القيم والتراث الذي تركه سابقوهم وعدم خلطه بثقافات الحضارات الأجنبية التي أحسنوا فرز فوائدها، ولم يأخذوا إلا المناسب منها.

ولكن قبل انقضاء القرن الثالث للهجرة، ظهر نوع آخر من المفكرين والنقاد الذين تأثروا تأثراً بالغاً بالحضارة اليونانية والكتب التي تُرجمت منها إلى العربية، ومنهم قدامة بن جعفر الذي استعان بمؤلفات أرسطو المترجمة إلى العربية، وأضاف منها أسساً جديدة على النقد العربي وغربية عنه، لكن حالته لم تكن شائعة آنذاك. وفي القرن الرابع للهجرة أصبح النقد ممنهجاً، فصار الناقد يعتمد على التحليل والتعليل والمنطق الذي أحسن الاستفادة منه، مع الالتزام بالذوق والناحية الجمالية المتأصلة في الثقافة العربية، على غرار الآمدي صاحب كتاب "الموازنة بين الطائيتين"، والقاضي الجرجاني في الثقافة العربية، على غرار الآمدي والعسكري صاحب "الصناعتين"، وغيرهم الكثير ممن بمؤلفه "الوساطة بين المتنبي وخصومه"، وعصرهم كالمثني أو العصور التي سبقتهم.

عكفوا على نقد شعر أكبر الشعراء سواء في هذه الفترة -أي القرنين الثالث والرابع الهجريين- إذن فقد حمل جزء كبير من النقد العربي في هذه الفترة دراسة القصائد الشعرية أو النصوص الأدبية⁴، في طياته خصائص جوهرية في النقد الحديث، سواء دراسة القصائد الشعرية أو النصوص الأدبية⁴، أو نستطيع القول بطريقة عكسية أن النقد العربي الحديث المحافظ نسخ للنقد القديم وإضافة إليه،

حتى أنه يمكن القول بأن نقد تلك الفترة حمل طابعاً بلاغياً لارتباطه الوثيق بعلوم البلاغة واعتماده على قواعدها.

وبمرور الزمن تبلورت هذه المناهج ومرت على مراحل من الفرز والانتقاء، والإضافة، ولكن هذا لم يمنع النقاد المحدثين من الإبداع و وضع مناهج جديدة وفي نفس الوقت مكمله لسابقتها، ارتكزت على أسس ومقاييس بدءاً من محيط صاحب النص وبينته وسعة خياله وصولاً إلى المعنى الذي يرمي إليه والأسلوب الذي اتبعه

ولكن لم تستمر عملية الإبداع هذه طويلاً، فسرعان ما أخذ مصطلح الإبداع في الابتعاد شيئاً فشيئاً عن معناه ودلالته الأصلية لتأثر النقاد العرب بنظرائهم الغربيين وحضارتهم، فأخذوا يغرفون من ثقافتهم ويستوردون قوالب مناهجهم النقدية ويطبقونها بحذافيرها على الأعمال الأدبية والفلسفية والفكرية العربية دون الأخذ بعين الاعتبار الاختلافات والفروق الشاسعة بين الثقافة والحضارة الغربية وقيمنا العربية الأصيلة، وخصوصيات الأدب واللغة العربية. فبدل استخلاص المناهج والأسس النقدية من النصوص والأعمال الأدبية العربية التي استطاعت الحفاظ على نفسها من الضياع بفضل قيمتها الإبداعية والأفكار الأصيلة التي حوتها، نجد بعض النقاد العرب يقللون من أهميتها ومكانتها برؤاهم النقدية ذات الأسس الغربية، وهذه المبالغة في النقل اللامدروس للأفكار الغربية ولدت تبعية أدبية وفكرية للثقافة الغربية التي لا تتوافق مع قيمنا وتراثنا الأصيل، كما لا ننكر أن هناك من النقاد العرب من أحسن المزاوجة بين بعض الأسس الغربية والعربية.

ومن الأفكار النقدية التي حاول البعض إدخالها في منهجية النقد العربي "التناس" الذي حاولوا إيجاد أساس له في المناهج القديمة فوق اختيارهم على قضية تنبأه ألا وهي "السراقات الشعرية"، وآخرون اتبعوا منهج رولاند بارت الذي يفصل المؤلف عن عمله فلا يوليه أية أهمية، ولعل أكبر عالم لغة تأثر به النقاد واللغويون والأدباء العرب (فرديناند دوسوسير)5.

وإذا أردنا تصنيف المناهج النقدية الحديثة نجدها تنقسم إلى ثلاث طرائق تحليلية منظمة، فهناك المناهج المحافظة أو التقليدية ومنها المنهج الاجتماعي والنفسي والتاريخي، ومن أبرز النقاط التي تقف

عليها هذه المناهج مجد العوامل الخارجية المؤثرة في المؤلف. وهناك المناهج الحداثية والتي تغسب عليها الشكلائية، وتولى الأهمية الكبرى فيها للنص. مع تغييب المؤلف، وكثيراً ما تُعرف هذه القضية بـ "موت المؤلف". وهناك المناهج ما بعد الحداثية. كنظرية التلقي والتفكيكية ويترك جانب كبير من التحكيم فيها للقارئ.

ولعل ما يلفت الانتباه في المناهج الحداثية أنها غريبة عن الثقافة الأصلية للأديب والناقد العربي، فأغلبها ناتج عن نظريات علمية نفسية وفلسفية، تم تطبيقها على الأدب بطريقة عشوائية تعسفية، وهي في الأغلب وليدة المعرفة الحديثة والأفكار التي جاءت بها.

ومن النقاد العرب الذين تأثروا بالمناهج الغربية الحديثة "جابر عصفور" الذي اعتمد المنهج البنيوي الذي أوجده المدرسة الشكلية البنيوية ومن خلال هذا المنهج يحاول الناقد الوصول إلى المدلولات عن طريق العلامات التي تحدّد المحيط الخارجي للعمل الأدبي، وتأسست هذه المدرسة على يد رولان بارت "ROLAND BARTHES" ولجأت إلى البحث عن علاقة تربط بين الشكل والمضمون، كما اعتمدت علوم اللغة منهجاً نقدياً واهتمت كثيراً ببنية اللغة وتماسكها.

وهناك المدرسة الظاهرية الوجودية ومؤسسها غاستون باشلار وهو كاتب وناقد فلسفي، يرى بأنّه على الناقد أن يكون ذاتياً وموضوعياً في نفس الوقت مع توظيف الخيال للوصول إلى جوهر العمل الفني، كما يدعو إلى التخلي عن التراث الثقافي، الذي يقيد في نظره العملية الإبداعية والوصول إلى المثالية.

وهناك أيضاً المدرسة النفسية، ومن أهم روادها فرويد وشارل مورون، وتعتمد هذه المنهجية على تحليل الصور الشعورية والأحاسيس التي وظّفها الشاعر أو الكاتب لتسهيل الوصول إلى مقصده مع الأخذ بعين الاعتبار الظروف الاجتماعية التي تحيط به إضافة إلى طبيعة شخصيته، فيدرس النص باعتباره مرآة تعكس نفسية صاحبه.

أما المدرسة الماركسية أو مدرسة النقد الاجتماعي التي من أكبر منتهجي منهجها جورج لو كاش الذي تأثر بمنهجه لوسيان غولدمان، فأسس منهجاً نقدياً يربط العمل الأدبي بالمجتمع، ومدى تأثيره وتأثره به، وهو نفس المنهج الذي نحاه الناقد غولدمان.

ولعل أكثر المدارس تأثيراً في النقد العرب: مدرسة النقد الشكلاي البنيوي لاعتمادها النهج الموضوعي الشامل ومزاوجته بالصورة الشعرية كبري أكبر وفي

وهذا المنهج الاجتماعي التاريخي أو ما يسمى بعلم اجتماع الأدب، والذي من أتباعه مدام دوستايل وهيمبولت تين وتأثر بهما كل من طه حسين وعزالدين إسماعيل وغيرهما الكثير 6، ومن أهم الخصائص التي يركز عليها هذا المنهج: دراسة المحيط والوضع الاجتماعي للمؤلف قبل تحليل عمله. وظهر حديثاً المنهج التوفيقي وهو نتيجة منطقية للمناهج السالفة الذكر ومزج لها، فهو يتناول النصوص الأدبية من شتى جوانبها مع ترك جانب كبير من التحكيم للقارئ أو المتلقي.

ومع نقل الناقد العربي لهذه المناهج حرفياً كما سبق الذكر ظهرت مشاكل جمة في النقد العربي، منها مشكلة انزياح المصطلحات عن دلالاتها الأصلية.

وهذا الإشكال ناتج عن عدم ارتكاز المناهج النقدية التي يبني عليها مفكرون ونقادنا وأدباؤنا دراساتهم ورؤاهم الفنية على أسس المعرفة العربية الأصيلة، واستعمالهم للقوالب الجاهزة التي يكتفونها الغرب على حسب مقاسات معرفته وثقافته، فأخذت المصطلحات العربية في الانحراف والابتعاد عن دلالاتها الأصلية بحجة مجازاة التغيرات المنهجية المصاحبة للتطورات الثقافية والعلمية الغربية، مع إغفال الفكر العربي الذي من المفروض أن يسير على خطى تراثنا العريق.

ومع تواصل هذه الفكرة الخاطئة، يتواصل لا محالة الخلط الفكري والمعرفي الذي كوّن عقدة عند المبدعين والأدباء والمفكرين العرب. وبذلك ابتعد النقد في غفلة منهم عن معالجة الواقع والظّموح، واكتفوا بالرؤية الدخيلة والتطلعات الغربية، البعيدة كل البعد عن الأسس التي بنيت عليها المعرفة والثقافة والنظرة الاجتماعية العربية 7.

لذلك وجب على الناقد والمفكر والأديب العربي إعادة النظر في طريقة استقائه لما يناسب دراساته للمواضيع تلي حسب ثقافة المجتمع ومتطلبات رُقيّه، وهذا بتميز الأفكار المنهجية الغربية والفصل بين ما يصلح منها وما يعارض ثقافتنا، وما يستحق الإشراك وما ينبغي اقتراضه، وما يجب التخلي عنه، وهذا طبعاً سيؤدي إلى الإبداع وإيجاد طرق ومناهج جديدة في أفكارها، وتحريكها في مختلف الأصوفا، مما يبرز فيها نتائج البحث، وقائمة المصطلحات والمفاهيم دون التشكيك فيها وبالتالي التخلي عنها من أصولها. هنا نصل إلى أهمية الدراسة التاريخية للفكر الأدبي والمعرفي والاجتماعي والثقافي بصفة عامة، وبالتالي الرجوع إلى الأصول والرجوع إلى الأصل فضيلة.

إذن على الناقد أو الأديب أن يكون حذراً عند محاولته تطبيق أي منهج غربي على النصوص العربية، لأن هذه المناهج مهما كثرت وتطوّرت فهي لن تستطيع أن تطرق كل أبواب النص المراد نقده دون توجيه حسّي وشعوري من الناقد ذاته فلكل ناقد خصوصيته، وكذلك لكل أدب خصوصيته، وللأدب العربي أصول تتوافق مع بعض المناهج وترفض غيرها.

وفي النهاية يبقى الأدب إبداعاً ذاتياً لا يعقل أن يساير كل المناهج النقدية على اختلافها. وطبعاً هذا لا يعني ألا يستجيب الأدب للدراسة النقدية، ولكن لا ننسى أيضاً أن الأسس التي تقوم عليها هذه الدراسة منبعها الأدب نفسه، ويجب إذن أن يساير أحدهما الآخر.

أما فيما يخص الناقد، فمع تعدد واختلاف المناهج النقدية،— يجب عليه تقصي النقاط والقواعد التي يختار على أساسها أي منهج يسلك، وعليه أن يميّز ما يناسب النص المستهدف بالنقد، وعلى منهجه أن يكون متكاملًا حتى ولو اعتمد الناقد على مناهج مختلفة شرط ألا تكون متناقضة، بل يجب أن تكون مكتملة لبعضها البعض.

يجب أن تكون مكتملة لبعضها البعض. ومن النقد الذين أتوا على ذكر المنهج التكاملي: سيد قطب، وشوقي ضيف، وعبد المنعم خفاجي، وغيرهم، وهذا المنهج يجمع بين الجوانب التاريخية والفنية والنفسية والاجتماعية وغيرها، دون إغفال الكاتب وطبيعة أحاسيسه والظروف التاريخية والمؤثرات المحيطة، والدين والسياسة والمجتمع وغيرها، كما عليه أن يخصّص جانباً للمتلقى أو القارئ، فهو في النهاية المعني الأول

والأخير بالنص ونقده، إذن نخلص إلى أن الناقد لا يمكنه الاطلاع على كل جوانب النص وخفاياه ما لم تكن له قدرة على المزاوجة بين المناهج وانتقاء ما يحتاجه منها.

* قائمة المصادر والمراجع :

- 1- في النقد والتحقيق، د. مصطفى محمد الغماري، دار مدني، 2003.
- 2- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون.
- 3- النقد الادبي ومدارسه الحديثة، ستانلي هايمن، ترجمة الدكتور احسان عباس والدكتور محمد يوسف نجم، بيروت، لبنان.
- 4- البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق د. درويش جويدي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1425هـ - 2004م.
- 5- النقد الادبي، أحمد امين، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- 6- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، الطبعة الخامسة، دار الكتاب العربي، بيروت، 1405هـ - 1985م.
- 7- درس السميولوجيا، رولان بارت، ترجمة عبد السلام بن عبد العالي، المغرب، دار توبقال للنشر.